حكيم الحركة الإسلامية
الدكتور أيمن الظواهري

بقلم الشيخ؛ أبي قتادة الفلسطيني
عمر بن محمود أبو عمر

* * *

"حين تنشطر الذات من أجل الحوار يكون الإنصاف وقد حاولت أن أنظر بعيني الاثنتين لثقتي أنني سأرى بهما أفضل".

* * *

واللیث أيمن واليمان فعاله　　ظهر المعالي مستقر جلاس

* * *

"ربما تعجز الكلمات عن الوصف لضعف صاحبها، وربما تعجز لعظمة الموصوف".

* * *

قانون الإيمان فوق تفسيرات الشيطان وجنده، فهم يجعلونه يوماً حكراً على الفقراء ويوماً على الشباب ويوماً على المهمشين، والحقيقة ان الإيمان قذيفة ربانية تغزو القلوب المتواضعة فيأتلفان حتى يكونان زهرة الحياة ودولابها المحرك لعظائم الفعال فيها، واحسب ان الدكتور أيمن من هذه الصبغة المشعة التي تبطل سحر خيالاتهم فتنقلب عليهم كوابيس ليل تؤرق مضاجعهم، فهذا الشاب المعجون بشرف الأثل الرفيع المندّى من عرف بيت العطارة بحسن الخلق وغنى النفس. شاهد صدق على طبيعة هذه القذيفة وسر تكونها.

أي سر مغموس فيه حتى يجمع بين كل هذا الادب وهدوء النفس ورقة الطبع وبين هدير الرفض وجلجلة الصِّدام وجرس المقاتل الشرس؟!

أما شرف الأصل فجـدّه لأبيه الشـيخ الظـواهري بلغ مشيخة الأزهر وابـوه كـان عميد كلية الصـيدلة في جامعة الجزائر مـدة، واما بيت امه فـآل عـزام الكـرام الـذي بلغ احـدهم وهو عبد الـرحمن عـزام انه كـان اول امين عـام لجامعة الـــدول العربيـــة، فـــأي صـــدفة لحقت بـــرأس المحققين عنـدما سـمعوا من احـدهم أن أحد مسـؤولي تنظيمهم المجاهد ضد حكوماتهم المرتدة هو هذا الطـبيب القاطن في المعادي احدى أحياء القاهرة الثرية؟!

هل يعقل هـــذا؟ نعم.. لأنها صـــبغة الإيمـــان {ومن احسن من الله صـبغة}؟! في واقعنا الاسـلامي معضـلة "الحكمة" التي يصقلها الزمن وترشدها الاحـداث ذلك لأن الكثير من الأفذاذ اليوم لا يطول بقاؤهم لمسارعة اعـدائنا في قصف هـذه الاعمـدة الحكيمة وذلك لأنهم يعملـون مع قاعدة " الصغار ينسون والكبار لهم القبور" ولولا وجود يد الله الراعية لهـذا الـدين ورجاله لما رأى النـاس أي ابـداع حكيم يتداولونه اليوم، فإن رعاية الله هي التي عنت بسيد قطب في نتاجه الرائع، ومع كل الملاحقة وقلة المدة التي عاشها تحت ظلال الإيمان ومسارعة الكفر الى سـجنه ثم شنقه وشهادته إلا أن الله بـارك وتحققت رؤيـاه الصـالحة حين رأى العسل الطيب يفيض من بيته الى كل الـــبيوت يغمرها ويغمر الطريق وقد تــــــاول العسل بقلمه وكتبه رحمه الله.

منذ أن رأيت الـــــدكتور أيمن وجلست معه جلسة يتيمة وأنا ادعو الله له أن يحفظه ويبقيه لأني رأيت فيه اســتحقاق الحكمة وقيادتها في العمل الأسـلامي وخاصة في الحركة الجهاديـة" فهـذا العقل اللمـاح وهـذا الهـدوء العميق وهـذا التواضع الجم وهـذه التجـارب الفنية الثرية جنديا، وقائدا، فـاعلا ومتألمـاً صـامتاً، هي مقومـات قيـادة الحكمة في هذا الرجل الفذ.

ثم إن اردت العجب فـــأعجب ان له ذوقـــاَ رائعـــاَ للكلمة وسطوتها وجرسها الموسـيقي، فهو يعشق الشـعر ولعله يحفظ ديوان الحماسة الذي جمعه الشـاعر الطـائي أبو تمام سيد التجديد في عمود الشـعر الشـعر العـربي اذ قلّما يخلو له كلام مكتـــوب أو شـــفاهي إلا وعلى لســـانه الاستشهاد بالشعر.

للحكمة نكهتها مع هذا الرجل الفذ:

• حب لأهل الأسلام جميعا، فقضاياه كبيرة يرفض أن يعيش قضية شخصية مبعثها تنافس مع مناوئ، أو تهاوش لا يليق بقائد أمة، ولذلك اجمعت معارفه كل سلامة صدره ودماثة خلقه وبراءة كلماته من اي شوب.

• الجهاد عنده مشروع أمة كل قضاياها العظيمة، اذ يبدو الجهاد عند البعض عمل حسبة لإصلاح بؤرة صغيرة او ثأر للرد على ظلم وقع، ولكن الدكتور أيمن إن تكلم عن الجهاد يجبرك ان تعلم منه أن قضية الجهاد هو قضية أمة، ففلسطين حاضرة في كل جملة، وأمريكا على رأس الأولويات، وتحقيق العدل الكوني معقد الألوية، وإسعاد البشر هدف الجموع، وهذه شهد الله لم أرها في أيامنا هذه عند أحد هو قائد تنظيم مجاهد كما هي عند الدكتور أيمن.

• هل سمعتم بطائر الفينيق الأسطورى؟ تقول الخرافة اليونانية أن هذا الطائر كلما ذبح عاد الى الحياة ثانية وفي قتله قوته، وهكذا هذا الرجل، اذ مرت الحركة المجاهدة في مصر خصوصا باعتبارها الأعتق في ظروف قاسية ومؤلمة، جعلت الكثير من اتراب الدكتور يؤثرون جانب الأعتزال أو المهادنة إلا هذا الرجل، فكل مرحلة هي الأشد مما قبلها، وكلما ظن خصمه أو صديقه أنه انتهى حتى يعود ليؤلف نسيجاً جديداً ليصادم أعنف ويهجم أقوى، وهذه سمة الحكمة الذكية التي هي عطاء إلهي خاص.

• الحكمة زهد وعتق من أسر الشهوة، والزهد لا يكون إلا عن قدرة وامتلاك، وهذه حاطها الدكتور بكل جمالها وألمها، فليس تدينه عن عجز كما يريد الكفرة تصوير حالة المتدينين، بل عن إيمان بأن الإنسان عبد لله وأنه يجب عليه أن يعيش القضايا العظيمة التي حملها هذا الدين للعالم والبشرية وتجب حملها بصدق دون النظر للعواقب التي تلحق الإنسان في نفسه وأهله وماله، وها هو الدكتور قدَم ذلك كله من أجل ما يؤمن به ويعتقد أنه الحق.

• اعترف الدكتور في غير موطن أنه نتاج ما كتبه الإستاذ الشهيد سيد قطب، والحق أن أغلب من قرأ ما قاله سيد ووجد فيه ضالته ونهمته، ووجد فيه صدقه وقوته كان الشعر دوماً بالحاجة إلى التأصيل الفقهي لما يقوله، فإن سيد يكتب "انفعالات" النفس أمام

النص القرآني، وكتاباته "أحاسيس" مرآة نقية قبالة نور إلهي، فتأسر قارئها لكن تشعر بـالنقص أمـام الخطـاب الفقهي والتبـويب العقـدي المـأثور عن السـلف، وقد جــاءت كتب ابن تيمية وابن عبد الوهــاب رحمهما الله ومن دار في محيطهما لتملأ هـذا المطلـوب، فـاكتملت الحلقة عند الكثـير إذ اتسـقت جمالية الـذوق الإيمـاني في كتابـات سـيد قطب وعمق وتأصـيل الفقه والتوحيد من أركـــان المدرسة السـلفية، وهو نتـــاج رائع مــتين محكم وقد رأيناه جامعاً لهذين رأيناه أكمل وارفع ممن بنى على أحد الأمرين دون الآخر، وقد كان الدكتور قمة في هذا الجمع ورجلاً تاماً فيهما.

• كل فكـــرة مهما بـــدت عظيمة تبقى جامـــدة ما لم يتلقفها عقل مبـدع وتـديرها إرادة حكيمـة، والجهـاد هو حيـاة الأمة لكنه عند الكثـير مجـرد شـعار جميل ينعش اللســان في خطبــه، والأحلام في آمالهــا، فــإن واقع الجهـاد على وجه الألم وتكـاليف البلاء والصـبر أنكـره هؤلاء وعابوه، فهم يحملونه حلماً جميلاً يأبون أن يـنزل إلى واقعهم، وإن طلب منهم ولو تحقيق خط من خطوط العملية عجزوا وألقوا التبعة على الأمة (كخيـال لا وجـود لـه) أو على الحكـام (وهم يعلمـون أنهم أولى بالجهـاد من غـيرهم)، وبحق إن الـدكتور كـان وما زال يسـعى لـرأب هـذه الفجـوة الـتي تحياها الأمة فصـاماً قــاتلاً، فحكمة الــدكتور أنه سـعى دومــاً لوضع "حلم" الجهاد "واقعاً" يعيشه الشباب متحدين كل الموانع التي تحمل الموت والسجن في كل محطـة، وقد عـانى من جــراء هــذا الكثــير وقد بــدا عند البعض أنه متنــاقض المواقف غير مقيم على منهج عملي، وقـولهم هـذا من قلة منهجهم للحياة ومن بعدهم عن معانـاة "الفعـل" و "السـيرة" إذ يظنـون أن "الأفعـال" هي "عقائـد" ثابتة ولم يفهمـــوا أن "الأفعـــال" هي حيـــاة تتـــداخل فيها الخطوط ويتقدم ما كـان متـأخراً يومـاً ويؤجل ما كـان متقــدماً يومــاً، وها هنا تــبرز "الحكمة العمليــة" وهي حكمة يشوبها دوماً وجود طرفين :

1) عــدو حاسد يــراقب لينقــدها دومــاً، متعقبــاً كل صغيرة ليضخمها من أجل الإسـقاط والتـدمير، والحكيم لا يأبه لهم كثـيراً في حسـاباته، وهـؤلاء يـتزيون في الوسط الإســلامي بــدور المخلص الطــاهر الــذي يريد أن يجــرد "التوحيــد" زعمـــوا، أو يريد "النفــادة" التامة في العمل

الإسلامي، ويعرف هـؤلاء بـأنهم أبعد النـاس عن "الفعـل" بل هم ظاهرة "كلامية" فقط.

2) جاهل في التفريق بين "الفعـــل" و "العقيـــدة" فالعقيدة حالة تصورية لا تتداخل فيها المصـالح، ولا تـدخل عليها "الموجبات" التي تغـير الفتـوى، و"الفعـل" في هـذا البـــاب على خلاف، فهو واقع تتـــداخل فيه المصـــالح وتتعارض، وتدخل عليه "الموجبات" كما تخرج منه لتـدخل أخرى وهذا الذي سماه بعض السلف "بتغير الفتوى لتغـير الزمان والمكان"، وهؤلاء صغار العقول ضعاف الفقه وهم حالة مرضية في التيار الجهادي للأسف ولو خوطبـوا بهـذا لظنـوه فلسـفة ولم يعرفـوا أن هـذا من مهمـات أصـول الفقه الذي صار للأسف علماً "مصطلحياً" وليس "ملكـة" يعيشها العاملون للإسلام بعد الفقهاء.

وللدكتور محطات عملية عاشـها من مرحلة الشـاب المنفعل بما كتبه سيد قطب إلى مرحلة اللقـاء مع شـباب مثله للتخطيط للعمل، إلى مرحلة الفتنة والابتلاء والحـوار داخل الصف المجاهد في السـجون بعد مقتل السـادات، إلى رحلة الجهاد إلى أفغانسـتان، إلى مرحلة الفتنة داخل التنظيم وتشـتت الحـال والنفـوس، إلى مرحلة البنـاء الشاقة في ظروف قاسـية إلى اللقـاء مجـدداً مع الشـيخ أسـامة بن لادن في أفغانسـتان تحت حكم "طالبـان" إلى حالة الصـراع مع أمريكـا، وكلها حـالات ومحطـات مفعمة بالتجربة، مليئة بالأحداث والنتائج تـوجب على الـدكتور أن يتصدر منصب "الحكيم" في الحركة الإسلامية المجاهـدة، وكم يحتاج الشباب والتاريخ إلى خبرته وحكمته.

حفظ الله الـدكتور وأبقـاه ذخـراً للأمة العظيمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

حوار :

- الشيخ : هـذه ورقة فيها نفس خـاص كما أرى أيها الفتى.

- الفـــتى : نعم شـــيخنا فالـــدكتور حالة كما أظن. صـــدقت، ولكن مـــاذا تقـــول عما كتب عنه في كتـــاب "الظـواهري كما عرفتـه"؟ الكلام عن هـذا الكتـاب يأخذ شقين شيخي.

- ما هما؟

- الشق الأول يتعلق بباعث الكتاب وعنوانه، والثـاني يتعلق ببعض المحطات فيه.

- هات الشق الأول لنرى ما عندك؟

- المعروف شيخي أنه لم يكتب من قبل في الوسط الإسلامي كتاباً عن شخص يعمل للإسـلام من قبل معاشر له إلا على جهة الإحاطة وإبـــــراز الحكمة والمعرفة في حيـاة هـذا الإنسـان وما فعله "المحـامي" أنه كتب عن الدكتور وهو من هو في هذا الـوقت وحالة الصـراع العالية بينه وبين قوى الطـاغوت في كل صـوره ليخـدم في كتابه هذا الطاغوت، وإن كنت أعتقد أن الكاتب ومقـدم الكتـاب وكلاهما "محـــامي" أصـــغر من أن يصـــيبوا من صـــخرة الدكتور، فهؤلاء قرونهم هـواء وواهيـة، ولكن الكتـاب حالة شـاذة ومرضـية تعـبر عن حالة انتقـام أكـثر منها دراسة علمية لرجل عرف آخر.

وهـذا هو المتعلق بالبـاعث بعد شـذوذ العنـوان مع محتـواه عن الحالة الإسـلامية، فالبـاعث هو أن الـدكتور تكلم عن "المحـامي" باعتبـاره "عـراب" جريمة "الهدنـة" المزعومة بين الجماعة الإسـلامية المصـرية كما سـموها في أول الأمر ثم تـبين أنها خلع العـذار والـدين من قبلهم، فقد كتب الـدكتور في رسـالته فرسـان تحت راية النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن دور "المحـامي" فما كـان من "المحـــامي" إلا أن رد على غـــير الموضـــوع بـــأن كتب "رجيعـة" زاعمـاً أنه سيصـيب الـدكتور، ثم جـاء المقـدم للكتـاب لـيرفع خسيسـته ليزيد الأمر ضـغناً على إبانة كما يقولون شيخي.

- أراك تشـــدد العبـــارة فخففها وهـــات المحطـــات السيئة في الكتاب.

- زعم راقم الرسـالة أمـوراً غـير صـحيحة حـول الـــدكتور وكـــان تحليله لبعض الأمـــور أشـــبه بتحليل العلمانيين، فقد جعل رحلة الـدكتور إلى أفغانسـتان ثم ما جـــرى من تـــأجيج الصـــراع مع الأنظمة هو من الحالة النفسية التي أصابته بعد إجباره على الشـهادة ضد إخوانه في المحكمة العسكرية، وهذا تحليل شيطاني يقوله (على صـحة الحـادث وتجـاوز ما فيهـا) من لا يعـرف شـيئاً عن الإسـلام والتوبة فيـه، فـإن المسـلم مرحـوم بالتوبة الـتي

تعفيه من هذه الردود التي توجد في العالم العلماني، إذ لا يعرف هذا التحليل قط في الوسط الإسلامي لا تاريخياً ولا من المعاصرين، وإنما أراد "المحامي" أن يقفز فاشتدت قفزته حتى جاء على قفاه. ثم ما يؤكد هذه الحالة المرضية عند الرجل "المحامي" (والذي تحول إلى محلل..!!) هو ما قاله عن الدكتور من تحوله عن "دور البطولة إلى دور المساعد" فالظاهر أنه متأثر من أحد أمرين إما قراءة النقد السينمائي وأجوائه حيث تشيع هذه الألفاظ – بطولة ومساعد وسنيد – وإما أنه مريض يلقي بمرضه على الآخرين، وكلاهما فاجعة، وأما هل الدكتور بطل أو مساعد فالدكتور صدر حيثما يكون، والعمل الإسلامي ليس فيه هذا والحمد لله رب العالمين، وقد قبل الدكتور دوماً دور الجندي الذي يفرض نفسه بكل عفوية كحاضر في عقل شباب الإسلام.

- كانت البسمات تتوالى على وجه الشيخ وهو يسمع الكلام من الفتى، فكلما انقضى الفتى من كلامه قال الشيخ: كلامك هذا مع شدته فيه الحق، فلو جردته عن العبارات الشديدة وأبقيت النقد مجرداً لقبل الناس كلامك، وأخاف عندما تكبر غداً أن تعتذر عن هذا الكلام وشدته.

- رد الفتى قائلاً : يكفيني أن يكون كلامي حقاً وأن يعرف الناس أن "المحامي" يستحق أكثر من هذا عندي وأنه أراد بكتابه هذا أن يدفع ضريبة بقائه خارج السجن لكن على سمعة الدكتور وصهوته.

- هذه قضية أخرى لا دخل لي فيها، وهي تتعلق بالعقاب لا بالعلم ونقده، وقد جردت نفسي معك على العلم ونقده دون غيره، فعاقب كما شئت لأنك ستعاقب بعد ذلك وستملؤك الجراح، ولكن دعنا من هذا ولنعد إلى كلامك عن الكتور نفسه، فقد رأيتك وكأنك تحمل الدكتور مسئولية في كلامك، أليس كذلك؟

- هو ذلك شيخي، فإن الدكتور عليه أمانة عظيمة وهو كتابة الحكمة العملية لشباب الجهاد.

- هل تظن أن الدكتور أيمن بلغ بعضها في كتابه فرسان تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم؟

- لا أكتمك شيخي أن كتابه قد صدمني بعد قراءته، فهو كتاب ضعيف من كل وجه ولا يليق بما أعرف من الدكتور وقدراته، ولو بحثت عن اعتذار يقنعني لماذا هذا المستوى في الكتمان سأجد له الكثير، من وضعه وقلة مصادره ولكن حق الأمة لا يعفيه من هذا الواجب فسيبقى معلقاً في عنقه.

- إذن كيف ترى أن يرفع الدكتور بعض هذا الواجب من عنقه كما تظن أيها الفتى المشاغب؟

- شيخي الكريم أنا أعرف مشقة الكتابة وإرهاقها، ثم أنا أعرف وضع الدكتور، فهناك طريقة يفعلها الكثير اليوم وهي ناجحة وعملية وتحقق المنفعة المطلوبة، وهي ان يقوم بعض النبهاء والخبراء بتحضير أسئلة عديدة توجه للدكتور ويجيب عليها بصوته وقد تمتد ثلاثين ساعة تسجيل أو خمسين أو مئة بحسب الضرورة والحاجة والمواضيع ثم تفرغ وتجمع المواضيع المتشابهة ويؤلف منها الخلاصة ثم تنقح ويراجعها صاحبها حتى تخرج كتاباً موسوعياً رائعاً وبسرعة مقبولة.

- هذه طريقة جديدة لا يقبلها أمثالي القدماء.

- لقد أعطيتني الحق من قبل شيخي أن العلم لكم والأسلوب لي وهذا مما أعتقد أنه يحقق الفعالية لمشايخنا وحكمائنا، فإن الكثير منهم يمتنع عن كتابة التاريخ أو الحكمة أو الآراء بسبب قلة الوقت أو عدم معاناة الكتابة الطويلة من قبل، فهم في أذهانهم مشاريع ولطولها ستبقى دائماً في الذهن دوماً ولن تتحقق فيما يبدو لنا.

- الظاهر ايها الفتى أنكم تريدون منا أن نصبح عملة قديمة.

- بل أنتم المعدن ولكن دعنا نحقق لكم صياغة جديدة شيخنا – قالها الفتى وهو يضحك -

- مسألة أخرى، في حديثك عن سيد قطب رحمه الله تعالى وما تتركه من آثار رائعة في نفس القاريء ثم شعور الحاجة لغيرها ليتم البناء الفقهي والنفسي، هلا دللت على قولك بتجربة ما.

- أنت تعلم شـيخي أن سـيد يطلق عبـارات عامة وعنـاوين كبـيرة كالمفاصـلة والعزلة الشـعورية فيـأتي البعض ليجعل منها فقهـاً عمليـاً بكل تجريـدها وعموميتها فينتج كما رأيت أحد أمـرين، إما أن يخـرج من الإطـار السني إلى الخارجية أو بعض الخارجية وهؤلاء نـراهم إلى اندثار أو اعتزال شـديد لصعوبة تحقيق فقههم في الحيـاة وذلك لخروجها عن سـنن الفطـرة والخلق ومخالفتها للحكمـة، وفريق آخر تشـده الطموحـات العظيمة الـتي يحملها ويـرى في هـذه العنـاوين العظيمة الـتي يطرحها الشـهيد سـيد قطب بعد تجربة أو تجـارب عملية معها أنها مقيـدة ولا تصـلح أبـداً لتحقيق المقاصد والطموحـات الشرعية فينقلب عليها ويبـدأ بنقـدها، وكلاهما عنـدي على خطأ، فسيد لا يطرح أبداً "الفعل" ولا فروعه، ولكن يؤطر كتبه في قضيتين اثنتين فقط.

أولاهما : تجريد التصـور الـداخلي عن الـدخن والخلائط الأخرى وهذا بناء علمي تصوري.

وثانيهما : بناء نفسي يتعلق بتحقيق الثقة العالية بهذا الدين واستغنائه عما سـواه وإملاء النفس بـالغنى والعـزة بالإيمـان، وهـذا ولا شك شـيء عظيم جليـل، ولكن ما لا يطرحه سيد وهو أصـلاً لم يدعيه هو "الفعـل" وكيف هـو، وهذا مشروح في السـنة والسـيرة وليس لسـيد دراسـات كافية في هذا، وقد رأيته في الظلال يلمح إلى بعضها لكن لم تصل لدرجة تكفي لتحقيق ابجـديات أي مشـروع، وهنا يبرز دور الفقيه والمفكر والسياسي ليملأ هؤلاء هذا الدور المهم، ولـذلك أعجب من البعض أنهم يـأتون لسـيد من أجل أن يقدم لهم مشـروع عمل في تنظيم مـا، أو يـأتون إليه ليقـدم لهم فقهـاً لقضـية من القضـايا، هـذا مع عـدم أنكـاري أن لسـيد بعض الاختيـارات الفقهية مبثوثة في الظلال، ولكن لا أرى أن سـيد قد وصل إلى درجة ادراجه في الاختيـارات الفقهية مع التسـليم له أن له دوراً في الاختيـارات التفسـيرية، فحالة الإعجـاب بسـيد يجب أن لا تجعلنا في وضع انبهـار لكل ما يقوله رحمه الله وأجـزل مثوبته.

- ومن هـذا الجديد الـذي سـنرى لوحته بعد الـدكتور أيمن؟.

- هل تأمرني بأحد شيخي؟

- هلا عـرجت على الحركة المجاهـدة في سـوريا الشام ورجالها.

- أمرك شيخي ونعمت عين فهل أبـدأ بمـروان حديد شيخي؟.

- نعم الاختيار فإلى لوحته لنرى ما عندك.

كتبه؛ أبو قتادة الفلسطيني
عمر بن محمود أبو عمر